يعرون الجذوع ويكدسون الاعمدة الخشبية والاغصان المحطمة في مستودعات خاصة» . (طبعة فوسيت ، جرينتش ، ١٩٦٧ ، ص ٧٤٧) .
ويذهب الى أبعد من ذلك فيقول « صارت الحقول التي كانت جميلة يوما ما قاحلة وبقيت على حالها ، أهمل الزيتون القديم ولم يعد يعيش انسان حيث وجدت المدنية لزمن بعيد ... كانت هناك أفاع وحشرات تأتي من مستنقعات الملاريا التي حلت محل الحقول المروية التي أطعمت شعب ماكور لاثني عشر ألف عام » . (المصدر السابق، ص ٧٥٨).
وبالنسبة للحالة العامة للبلاد ، « كيف كانت متناقضة : فبينما كانت تذهب مياه المستنقعات سدى كانت الاراضي تتحول الى صحراء لحاجتها الى الماء . واذا ما صادف ومرت قبيلة بدوية في المنطقة فانها كانت وبدون احساس تقتل المزارعين الذين يحاولون احياء التربة وتستمر في سيرها » . (المصدر السابق ، ص ٧٦٠) .
ولكن كل هذا كان قبل الصهيونية: «لقد سمح القيمون الاخرون على الارض التي كانت حلوة أن تفسد وان تردم الآبار وتختفي الغابات ، لقد أعاد اليهود الارض الى انتاجيتها » . (المصدر السابق ، ص ٩١٤) .
لقد كانت لدينا شكوك حول هذه الخرافة لبعض الوقت . نحن نعرف عن التجفيف في وادي الحولة في الشمال وعن ري الصحراء في النقب في الجنوب وعن بعض المشاريع الاخرى ، ولكن التعبير العام « جعل الارض صحراء » هو موضع شك ، لشيء واحد هو ان ليس لذلك معنى من ناحية الارض .
ان لبنان ، جيولوجيا ونباتيا ، هو امتداد لشمال فلسطين وكثير من اراضيه منتجة وخصبة بدون فوائد الزراعة الصهيونية(٢). كما ان كثيرا من السياح طبقوا تلك الخرافة بسذاجة على كل اسرائيل بما فيها المناطق المزدهرة منذ اقدم الحقب مثل حيفا وسهل مرج بن عامر . وأدلاؤهم لا ينهونهم عن ذلك دوما . ولا يحتاج عالم النبات لمن يبرهن له ان كثيرا من اجزاء اسرائيل خصبة بطبيعتها وانها على هذه الحال منذ زمن بعيد . ولكن اين يكمن البرهان على ما نزعم ؟ منذ مدة وجيزة واثناء قراءتنا لكتب رحلات انجليزية واميركية اكتشفنا ان كثيرا من الرحالة الاول — وعددهم كبير جدا — قد سجلوا مشاهدات تفصيلية للمناظر البرية حيثما ساروا او ركبوا عبر المناطق الخالية . خطر لنا انه اذا استخلصت مشاهداتهم عن البلاد التي نحن بصددها ووضعت على خريطة مجسمة فانها ستحسم الخلاف بشكل موثوق . لذلك قمنا بالبحث والتجميع الضروريين ، وهذه هي النتائج :
كان جورج ساندیز الشاعر والمترجم الانجليزي احد الرحالة الاول الذين وصفوا البلاد بالتفصيل ، ففي عام ١٦١٠ قال عن البلاد بشكل عام : « البلاد التي تفيض باللبن والعسل ، في وسط عالم صالح للسكن وذات مناخ معتدل ، مزدانة بالجبال الجميلة والوديان الرغدة : تتفجر المياه العذبة من قلب الصخور وليس هناك من مكان يخلو من البهجة والمنفعة » . (ج. ساندیز ، **قصة رحلة بدأت عام ١٦١٠ بعد الميلاد** طبعة ثانية ، (لندن) ١٦٢١ ص ١٤١) .
ولاحظ لدى وصوله الى بحيرة طبرية ان « التربة المحيطة بها ذات طبيعة مدهشة اذ ان الفواكه التي تعيش في المناطق الباردة والتي تعيش في المناطق الحارة وتلك التي تعيش في المناطق المعتدلة ، تزدهر هناك كلها وكأنها في سعادة عظيمة » (المصدر السابق ، ص

---

٢ — ان وادي لبنان الاوسط ، البقاع ، كان في منتصف القرن التاسع عشر ، كما يقول مارك توين « صحراء مقفرة ليس فيها الا الحشائش وتغطيها طبقة كثيفة من الحجارة الواحد منها بحجم قبضة اليد. وكان السكان يحفرون في بعض الاماكن ليزرعوا محصولا ضعيفا من الذرة ، ولكن القسم الاكبر من الوادي كان متروكا للرعاة ... » (**البسطاء في الخارج** ، فصل ٤٣ ، تحرير سجنت ، ص ٣٢٩) . واذا كان توين دقيقا هنا، فان البقاع قد حقق انتعاشا ملحوظا منذ ايام العثمانيين — على أيدي الفلاحين اللبنانيين العرب .